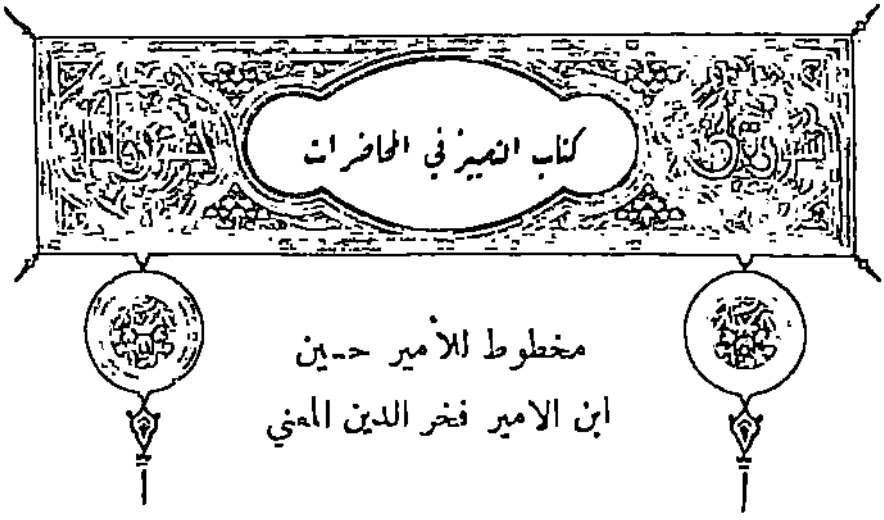

بقلم عيسى اسكندر المعلوف مؤلف تاريخ الاسر الشرقية ، وصاحب مجلة الآثار

تمهيد

كنت اول من نشر صورة الامير فخر الدين الثاني المعني ، وسيرة حياته المطولة ، معتمداً على ما كتبه مؤرخو الافرنج والترك والعرب ، ولاسيما تاريخ الشيخ احمد الخالدي الصفدي المخطوط في خزانتي ؛ وذلك في مجلتي «الآثار» ، بالمجلدات الاول والثاني والثالث ثم في الخامس ؛ وعثرت على صورة زوجته ، وفارس من فرسانه ، ومعسكره ، ونحو ذلك .

فلما رأيتُ المادَّة وافية في تاريخه ، اردت توسيع ذلك البحث المفيد ونشره في كتاب على حدة ، تعريفاً لشؤون حكم الامير المعني في اثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاد . وعرفت ، من الكتب المتعلقة به ، « مجموعَ الاحزان » في مراثي والده الامير قرقماز المعني الذي مات متأثراً مما حدث له باتهامه المعلوم ؛ و « كتاب التمييز في المحاضرات » لولده الامير حسين الذي استبقي حياً في الاستانة بعد قتل والده واخوته ؛ فضلاً عن الكتب المؤلفة فيه « كتاريخ اللبناني » الذي يظنه بعضهم انه معتمده الشيخ ابو نوفل الخازن ؛ و « هندسة البناء » باقتراحه تأليف البطريرك جرجس عميره الاهدني ؛ و « مدائحه » التي ذكرها المحبي في خلاصة الاثر . فارجو ممن يعرف شيئاً من هذه الكتب ان يفيدني عنها فاكون له من الشاكرين .

لسميتُ للحصول على هذه الكتب فوفقتُ الى احدها ، وهو « منتخبات

من كتاب التمييز » لولده المذكور ، الذي سماه الاتراك « حسين بك ». فتكرّم عليَّ بنسخة مصوّرة بالشمس من « الخزانة الملكية » في القاهرة ، حافظ القسم الافرنجي ، صديقي الاستاذ توفيق بك اسكاروس القبطي ، المعروف بادبه واطلاعه ، تزيل لبنان في هذا الصيف ؛ وحملها اليَّ معه. ثم استنسخ لي نسخة ثانية بالقلم نسيبي القائمقام العسكري اسعد بك المعلوف ، تزيل لبنان ايضاً ، وحملها اليَّ معه. فاشكر لهما غيرتهما العلمية. واقول كلمتي في هذه النسخة.

كتاب التمييز في المحاضرات

يظهر من مباحث النسخة التي وقفتُ عليها انها جزء صغير من كتاب مطوّل في الآداب والاخلاق ، فنبهتُ حضرة مدير « الخزانة الملكية » في القاهرة الى الحصول على المطوّلة الموجودة في « خزائن الاستانة » ، فكتب اليَّ انه ارسل يستنسخها ولعلّه يتوفق الى ذلك.

ان « منتخبات التمييز » المذكورة الآن هي عبارة عن ثماني وعشرين صفحة بقطع الشمن ، في مجموعة ٨١ من صفحة ٢٢٩ — ٢٤٠ ، ذكرها برنامج الخزانة في طبعته القديمة الاولى (٧ : ١١٦) واليك وصفها :

رتبها المؤلف ابواباً هكذا : في مدح العقل . والعلم والحلم . والحياء . والصبر . والمشورة . والشجاعة . والادب . والصمت . والفقر . والغنى . والقناعة . والاصدقاء . والعزلة . والوحدة . والعقاب . والزيارة . والهدية . والجود والسخاء . وصيانة المال . والبخل . والتجارة . والنساء والعيال . والتزويج . والسفر والغربة . والشباب . والشيب . والمرض والاسقام . والموت . وهو ختام الكتاب كما انه ختام الحياة في هذا العالم.

والنسخة بخط نسخي عليه مسحة من الطلاوة وضبط بالحركات المهمّة ، في كل صفحة ٢٥ سطراً.

مؤلف التمييز

هو الامير حسين ابن الامير فخر الدين الثاني المعني الشهير ، وُلد سنة ١٠٣٠ هجرية (١٦٢٠ مسيحية) ؛ ووالدته ابنة الامير علي سيفا شقيق يوسف

باشا سيفا حاكم طرابلس الشام وضواحيها . فلما قدم الوزير خليل باشا بيروت باسطوله العثماني سنة ١٠٣١هـ (١٦٢١م.) ارسل اليه الامير فخر الدين ولده حسيناً وهو ابن سنة ، وبجملته الميرة والاقامات . فسرَّ الوزير به لذكائه ، وهو في المهد ، واحبَّه كثيراً لجمال صورته . وبقي يذكر هذا الطفل ويحنُّ الى لقياه كبيراً.

فلمَّا جاء جعفر باشا امير الاسطول العثماني سنة ١٦٣٤ مسيحية ، محاصراً قلعة المرقب (قرب اللاذقية) ، اسرهُ منها مع مدبّره الشيخ ابي نوفل الخازن ، وارسلهما الى الصدر الاعظم خليل باشا المذكور في حلب ، ففرّ الخازني الى بلده متنكراً ، والامير حسين صار في قبضة الصدر . فسرَّ به وحافظ عليه ، فادخله في خدمته ، ونقله معه الى الاستانة . فتلقى العلوم في مكتب غلطه ، ونقل الى قصر السلطان الكبير ، ثم الى « خاص اوطه » ، مترقياً في الرتب السلطانية في داخل القصر العثماني ، حتى صار كتخدا الخزينة السلطانية . وعرضت عليه رتبة الوزارة فرفضها . ثم صار برتبة كتابة الدولة «الخواجكانية» فتولّى مناصب كثيرة حسب عادة اصحاب هذه الرتبة ، والّف كتابه « التمييز في المحاضرات والادبيات . » وارسله السلطان محمّد خان ، ابن السلطان ابرهيم خان ، سفيراً (ايلجياً) الى سلطان الهند . فمرَّ بصيدا في ساحل البحر ، ولاقاه نسيبه الامير احمد المعني خاتمة هذه الاسرة المعنية ، والامراء الشهابيون حكام وادي التيم ، واجتمعوا به في حاصبية . وعرضوا عليه حكم البلاد فلم يقبل . وسار الى الهند فاتمّ سفارته ، وعاد مكرّماً ناجحاً الى الاستانة مشهوراً بحنكته.

ولما توفي الامير احمد المعني ، وارادوا نقل الحكم الى انسبائه الشهابيين ، اعترض الامير حسين على تعيين الامير بشير ابن الامير حسين الشهابي امير راشية لأنه ابن شقيقة الامير احمد المعني ؛ وقرَّر ان حقّ وراثة الحكم هو للامير حيدر ابن بنت الامير احمد المعني ؛ فعملت الحكومة برأيه الصوابي . وعندي اوراق من العلّامة السمعاني تثبت هذا الرأي ، ارسلها الى لبنان في تلك الايام.

وكان المؤرخ العثماني نعيما الحلبي قد اتصل بالامير حسين هذا ، وعرف منه

اشياء كثيرة عن اسرته ووالده ، وحوادث لبنان ، فكتبها في تاريخه وترجم له مثنياً على آدابه ، وذاكراً من مؤلفاته « التميز » هذا ، و « تاريخ في تراجم علماء عصره » ، وهذا لم نعرف عنه شيئاً بل نرجح وجوده في خزائن الاستانة الغنية بمؤلفاتها ونوادرها .

وكان هذا الامير متضلعاً من اللغتين العربية والتركية ، عارفاً بشؤون البلاد ، يغلب عليه التقى والصلاح وله منظومات وقفت على بيتين منها وهما :

رأيتُ العقل ينفع وهو قصدٌ ويرمي في المهالك اذ يزيدُ
كمثل الماء يروي منه قدرٌ ويُهلك منه بالغرق المزيدُ

وتوفي في الاستانة سنة ١١٠٩هـ (١٦٩٧م) رحمه الله .

مختارات من منتخبات التميز

فمما اورده المؤلف الامير حسين في باب العقل قوله : العقل هو قوة وغريزة اودعها الله في الانسان ليتميز عن الحيوان بادراك الامور النظرية . وقيل : انه نورٌ يقذف في القلب ليستعدَّ به[1] لادراك الامور والعلوم العقلية . واشتقاقه من العقل بمعنى المنع ، ومنه العقال لمنعه الانسان عما لا يليق . وهذه القوة تتفاوت بالشدة والضعف ، وتزيد بامور مكتسبة بالتجربة ومخالطة العقلاء .

وقيل : ان العقل نور الروح ، وان العقل لسان الروح ، وترجمان البصيرة ؛ والبصيرة للروح بمثابة القلب ، والعقل بمثابة اللسان ؛ ولكل شيء جوهر ، وجوهر الانسان العقل .

والحق ان العقل روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية ، وبه يمتاز الانسان من سائر الحيوان . غير ان للعقل آفات منها الهوى ، وهو اغمض مسلكاً في الحيوان من الروح في الجثمان واهلك للنفس من النفس . روي ان الحسن البصري كان يقول : لو كان للناس كلهم عقول لخربت الدنيا .

وفي باب الحلم — هو ملكة الطمأنينة عند محركات الغضب ، وعدم

---

١) في الاصل ليستذبه والأول ما ذكرناه هنا

هيجانه الّا بسبب قوي وقعه عنده بلا تعب ، ويثمر اللين والرفق . وهو افضل من كظم الغيظ ، لان من يحلم بعد هيجان الغضب محتاج الى مجاهدة كثيرة ، والحلم عند الهيجان ؛ وهو دالّ على كمال العقل وانكسار قوّة الغضب وخضوعه للعقل ، وقد امر الله عباده بالحلم بقوله تعالى: وقولوا للناس حسناً : كمال العلم بالحلم وكمال الحلم بالعلم .

وقال صاحب النوادر والاصول: الحلم سَمَة الاخلاق ، فاذا توسّع المرء في اخلاقه ولم يكن لـه علم ، افتقد الهدى ، فيحتاج الى علم يقف بـه على الحدود ؛ واذا كان له علم ولم يكن هناك حلم ساء خلقـه وتكبّر بعلمه ، لان العلم له حلاوة ولكل حلاوة شَرَهٌ ؛ فاذا ضاقت اخلاقه لم ينتفع بعلمه لان ضيقه يرمي به الى شره النفس وحدّتها ، فيكون صاحب عنف وخرق في الامور فعندها ضاع علمه فالواسع في اخلاقه حرٌّ عن رقّ النفس (شعر) .

العلم والحلم حلّتا كرمٍ للمرء زين اذا هما اجتمعا

وفي باب صيانة المال — وكان يقال الممسك اعذر من الظالم بالفعال . لا عتب على من استبقى ماله ليصون به وجهه ويعرضه عن مسألة الناس والاحتياج اليهم . قال حكيم : الحاجة الى الناس عذاب عاجل وبلاء نازل .

وفي باب السفر والغربة — وجاء في الحديث : العباد عباد الله ، والبلاد بلاد الله ، فاين ما وجدت الخير فأقم واتق الله . وكان الحسن البصري يقول: من كان مع الله فليس عليه غربة . لو يعلم الناس رحمـة الله للمسافر لاصبح الناس على ظهر سفر ، ان الله بالمسافر رحيم . وقال جالينوس: السفر يشدّ الابدان ، ويشهي الطعام ، ويطارد الاسقام .

* * *

هذه لمعة من كتاب لابن حاكم لبنان في ذلك العهد ، تدلّ على آدابـه ، وكرم محتدهِ ، وجودة اخلاقه . وهي صفحات من كتاب تاريخ والده « الامير فخر الدين المعني الثاني» الذي سيظهر باول فرصة مدبجاً بصور رائعة ، ومباحث مفيدة ، والله الموفق !

زحله (لبنان) في ٢٠ آب سنة ١٩٢٩